صفحات ونفحات

من تسبيحات رمضان

بقلم
الدكتور: محمد مصطفى حلمى

أستاذ الفلسفة الإسلامية والتصوف بكلية الآداب بجامعة القاهرة

الحمد لك يارب العالمين ، والملك لك يامالك يوم الدين ، والتعبد لك يامن إياك نعبد وإياك نستعين : سبحانك ما أحكم قرآنك ، وما أعظم فرقانك ، وما أروع بيانك ، وما أسطع برهانك .

هذا كتابك الكريم ، أنزلته على نبيك العظيم ، وكان نزوله فى شهر رمضان ، هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، فأقرأته أحب أحبائك إليك ، وأصفى مصطفيك لديك ، فكان بما أقرأته من أولى آياته هو القرآن ، وأودعته أوامرك ونواهيك ، وضمنته حقائق العلم الكامل ومبادئ الخلق الفاضل ، وفرقت فيه بين ما هو حق و بين ما هو باطل . فكان بما فرقت هو الفرقان . وهو بما هو قرآن ليس أجمع منه لدلائل العلم الذى يؤدى إلى السعادة القصوى ، ولوسائل العمل التى توصل إلى البهجة العظمى . وهو بما هو فرقان ليس أمنع منه لتلبيس الحق بالباطل ، ولا أقدر منه على التفريق بين الحجة والشبهة . وهو بما هو قرآن وفرقان قد جعلت منه نورا تشرق به السرائر ، وتوفيقا تهتدى به البصائر ، فسبحانك ما أحكم قرآنك ، وما أعظم فرقانك :

ها هو ذا شهر رمضان ، الذى أنزلت فيه القرآن ، وأنطقت به لسان أكمل إنسان ، وأقمت على دعائمه أشمخ صرح وأرسخ بنيان . قد أقبل بأنواره الروحانية المشرقة ، وأسراره النورانية المتألقة ، فإذا النفوس الزكية تهيأ لاستكناه هذه

الأسرار ، وإذا القلوب النقية تستعد لاستقبال تلك الأنوار ، وإذا كل ما فى الكون يسبح لك فى الغدو والآصال والأسحار ، وإذا الصائمون فى رحابك ، الناعمون بترتيل آيات كتابك ، قد عاشوا شهرهم وهم أشد ما يكونون إقبالا عليك ، وشوقاً إليك ، واتصالا بك ، وقرباً منك . ذلك بأنهم قد طووا نهارهم فأمسكوا عن الطعام وأحيوا ليلهم فقاموا والناس نيام ، وهم فيما بين ذلك يتبتلون إليك تبتيلا ، ويرتلون قرآنك ترتيلا ، ويذكرون اسمك بكرة وأصيلا ، ويصبرون على البأساء فلا يتخذون من دونك وكيلا . ويشكرون على النعماء فلا يرددون بين يديك إلا ثناء جميلا ، فسبحانك ما أحكم قرآنك ، وما أعظم فرقانك .

وكيف لا يكون ذلك كذلك وقرآنك هو الجامع ، وفرقانك هو المانع ، وبيانك هو الرائع ، وبرهانك هو القاطع . ليس ثمة كلمة من كلماته ، ولا آية من آياته ، إلا وتشهد بأن ذاتك هى أكمل الذوات ، وأن صفاتك هى أجل الصفات ، وأن أسماءك هى أسمى الأسماء ، وأن أفعالك هى أسنى الأفعال ، وأن كل ما يشيع فى الوجود من أسرار الحق والخير والجمال ، وكل ما يشع فى القلوب من أنوار الإيمان والعرفان والكمال ، إنما هو دلالة من دلالات صنعتك ، وآية من آيات قدرتك ، وشاهد ناطق بجلالك وعظمتك ، ودليل صادق على أنك رب العالمين ، وأنك مالك يوم الدين ، وأنك منزل الكتاب المبين ، على قلب سيد المرسلين ، وأنك هادى من تشاء من عبادك إلى الصراط المستقيم ، ومهدى من تشاء من خلقك طريق الفوز العظيم ، فسبحانك سبحانك سبحانك ، ما أشرق الحق بأنوار قرآنك ، وما أزهق الباطل بأسرار فرقانك .

وإذا كان ذلك هو موقع رمضان من العام ، وموضعه من الليالى والأيام ، واختصاصه بليلة القدر ، وهى خير من ألف شهر ، بما أنزل فيها من آيات قرآنك ، وبينات فرقانك ، وبما تنزل فيها من الملائكة والروح ، فإذا هى سلام حتى مطلع الفجر ، إذا كان ذلك كذلك ، فأى شىء أحب إلى محبك المشرق إليك ، الهائم بك ، المسلم لك ، المتوكل عليك ، الراضى بحكمك وأمرك ، الساكن إلى قضائك وقدرك ، من أن يقضى عمره فى رمضان طاوياً نهاره ، محيياً ليله ، ظمأ الى طلعتك مشوقاً إلى رؤيتك ، محاولا أن يطفىء ظمأه وشوقه بما يقبل به عليك ، ويتبتل به إليك ، من آيات قرآنك البينات ، وبينات فرقانك الهاديات ، وذلك

على نحو ما كان يفعل أشوق المشتاقين إليك ، وأعشق العاشقين لك ، شرف الدين عمر بن الفارض ، الذى يخاطب ذاتك العلية فيقول :—

فى هواكم رمضان عمره ... ينقضى ما بين إحياء وطى
صادياً شوقاً لصدا طيفكم ... جد ملتاح إلى رؤيا ورى
حائراً فيما إليه أمره ... حائر والمرء فى المحنة عي

فابن الفارض هنا ، وهو ماهو من سلطان للعاشقين ، وإمام للمحبين ، وقف حياته على التسبيح بحبك ، والتغنى بوصلك وقربك ، لم يقف فى حبه لك ، وتقربه إليك ، عند حد صوم النهار وإحياء الليل إبان شهر رمضان فحسب ، وإنما هو قد ذهب إلى ماهو أبعد من ذلك ، إذ جعل من عمره كله رمضان ينقضى ما بين إحياء ليل وطى صوم . وهو من حيث هو كذلك أشد ما يكون شوقاً إليك ، ورغبة فى إطفاء ظمئه منك . ولكنه كلما جد فى السعى إلى طلبك ، والظفر بقربك ، لم يزدد إلا ظمأ على ظمأ ، وشوقا إلى شوق . ذلك بأنه على حد قول عبد الغنى النابلسى قد شرب من البحر المحيط ، وهو بحر التوحيد ، بعد فناء الأغيار ، وظهور المتجلى الحق ، فإن هذا البحر كل من شرب منه لايزال إليه ظمآناً ، وإن كان به ملآنا . وهو من أجل هذا كله فى حيرة من أمره ، لايدرى ما هو صائر إليه .

على أن ابن الفارض وقد برح به الشوق والوجد فى سبيل محبتك ، قد توسل إليك ، وإلى إشباع حبه منك ، وهيامه بك ، بما تكن إليه نفسه ، ويروّح به قلبه ، وذلك من قوله : —

ذابت الروح اشتياقاً فهى بعـ ... ـد نفاد الدمع أجرى عبرتى
فهبوا عينى ما أجدى السبكا ... عين ماء فهى إحدى مُنيتى
أو حشاً سال وما أختاره ... إن تروا ذاك به منّاً علىّ
بل أسيئوا فى الهوى أو أحسنوا ... كل شىء حسن منكم لدىّ
روح القلب بذكر المنحنى ... وأعده عند سمعى يا أخىّ

إلى أن يقول : —

لمتى عنـــدى المنى بلغتها وأهيلوه وإن ضنوا بنى
منذ أوضحت قرى الشام وبا ينتُ بانات ضواحى رحلتى
لم يرق لى منزل بعد النقا لا ولا مستحسن من بعد مى
آه واشوقى لضاحى وجهها وظما قلبى لذيّاك اللمّى
فبكلٍّ منه والألحـــاظ لى سكرةٌ واطربا من سكرتى

وإن ابن الفارض ليتحدث عن جمال ذاتك العلية ، وعن ترتيله أنشودة هذا الجمال على نحو ما تتلى آيات قرآنك الكريم ، وذكرك الحكيم ، فيقول : —

وأبَى يتـــلو إلا يوسفا حسنها كالذكر يُتلى عن أُبَىْ

كما أنه يتحدث عن ليالى الوصل التى استظل فيها بظلك ، ونهل فيها من مناهل فيضك وفضلك ، فيرجو أن تعود تلك الليالى ، وأن يفوز قلبه منك ، بما كان يتمنى عليك ، فيقول : —

أى ليالى الوصل هل من عودة ومن التعليل قول الصب أى
وبأى الطرق أرجو رجعها ربما أقضى وما أدرى بأى
حيرتى بين قضـــاء حيرتى من ورائى وهوى بين يدى
ذهب العمر ضياعا وانقضى باطلا إذ لم أفز منكم بشى
غير ما أوليت من عقدى ولا عترةِ المبعوث حقاً من قصى

أما بعد : —

فليس ثمة أروع وأمتع من أن تكون حياتنا الروحية فى رمضان ، تقربا إلى ذاتك السنية ، وتعرفا لحقيقتك القدسية ، واشتياقا إلى اجتلاء طلعتك النورانية ، وتسبيحا بآيات قدرتك العلوية ، بترتيل قرآنك الكريم ، وإحكام فرقانك الحكيم ، واستقاء الحق منه وتأييده ببرهانه القاطع ، وإقصاء الباطل عنه وتفنيده ببيانه الرائع ، فسبحانك ما أحكم قرآنك ، ثم سبحانك ما أعظم فرقانك ، ثم سبحانك ما أسطع برهانك ، ثم سبحانك ما أروع بيانك . الحمد لك ، والنعمة لك ، والملك لا شريك لك ، لبيك إن الملك لك « قل اللهم مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير إنك على كل شىء قدير .